٢١- ﴿ ويوم حنينٍ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾

كانت غزوة حنين في سنة ثمانٍ بعد الفتح[١] وسببها أنّ قبيلتي هوازن وثقيف قد أدركتا بعد أن دان أكثر الجزيرة العربيّة لمحمد ﷺ أنّهما سيكونان هدف محمّد ﷺ القريب ، خاصّةً وأنّهما قريبتان من مكّة المكرّمة الّتي تمّ فتحها على يد محمّد ﷺ . لقد قرّرت القبيلتان أن تغزوا محمّداً ﷺ قبل أن يغزوهما، وأسندت هوازن قيادتها إلى مالك بن عوف النَّصْرِيّ[٢] من بني نصر بن معاوية ابن بكر[٣] فاجتمع له مع هوازن ثقيفٌ كلّها، واجتمعت نصر وجُشَم كلّها، وسعد بن بكر وناسٌ من بني هلال وهم قليل[٤]وآخرون[٥] وفي بني جشم دُرَيْد بن الصِّمّة شيخٌ كبيرٌ ليس فيه شيءٌ إلاّ التّيمّن برأيه ومعرفته بالحرب. وكان شيخاً مجرَّباً[٦].

فلمّا أجمع مالك بن عوف النّصري السَّير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع النّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم [٧] فلمّا نزل بأوطاس، وادٍ في ديار هوازن كانت فيه وقعة حنين [٨] اجتمع إليه النّاس، وفيهم دُرَيْد بن الصِّمَّة في شِجارٍ[٩] له يقاد به . فلمّا نزل قال : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس.قال:نِعْمَ مجالُ الخيل.لا حَزْنٌ ضَرِس[١٠]ولا سهلٌ دَهِس [١] مالي أسمع

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٠.

(٢) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٠و٣٧١ ونور اليقين ٢٥٤ والكامل في التّاريخ لابن الأثير ٢/٢٦١.

(٣) الكامل لابن الأثير٢/٢٦١ .

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٠.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٠.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٠ وانظر الرّوض الأنف للإمام السّهيلي ٤/١٣٩.

(٧) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧١ والكامل لابن الأثير ٢/٢٦١.

(٨) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧١ وانظر معجم البلدان :" الأطاوس".

(٩) الشِّجار : شبه الهودج إلاّ أنّه مكشوف الأعلى.

(١٠) الحزن : المرتفع من الأرض . والضَّرِس : الّذي فيه حجارة محدّدة.

رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير، وبكاء الصَّغير ، ويُعار الشّأء[٢] قالوا: ساق مالك بن عوفٍ مع النّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل : هذا مالك، ودَعَى له. فقال: يا مالك ، إنّك قد أصبحت رئيس قومك. وإنّ هذا يومٌ كائنٌ له ما بعده من الأيّام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاءَ الصّغير، ويُعار الشّاء؟ قال: سقت مع النّاس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كلّ رجلٍ منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. قال: فانقضّ به[٣] ثمّ قال: راعي ضأنٍ[٤] والله! وهل يردّ المنهزمَ شيء؟ إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلاّ رجلٌ بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك[٥] .

لم يُصْغِ مالك بن عوف لنصائح دريد بن الصّمّة بأن يعود بقومه إلى بلادهم الحصينة وأن يلقى المسلمين هنالك بالفرسان على ظهور خيولهم:" فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك. وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك، قال: والله لا أفعل ذلك. إنّك قد كَبِرْتَ وكَبِر عقلك. والله لَتُطِيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتّكِئَنّ على هذا السّيف حتّى يخرج من ظهري .وكره أن يكون لدريد بن الصِّمّة فيها ذِكْرٌ أو رأيٌ فقالوا : أطعناك.فقال دريد بن الصِّمّة: هذا يومٌ لم أشهده ولم يفتني"[٦].

---

(١) الدَّهِس : اللّيّن الكثير التّراب.

(٢) يعار الشّاء : صوتها.

(٣) فانقضّ به : زجره.

(٤) قوله: راعي ضأن : يجهّله بذلك.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧١.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٢.

ثمّ قال مالكٌ للنّاس : إذا رأيتموهم فاكسِرُوا جُفُون سيوفكم ثمّ شُدُّوا شَدَّةَ رجلٍ واحد[١].

وكان لرسول الله ﷺ عيونُه الّتي نَقَلَتْ له أخبار القوم وما كانوا مصمّمين عليه من حربه ﷺ وحرب المسلمين، كما كان له عليه الصّلاة والسّلام مستشاروه،وهو ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّي الموحى إليه[٢].

ويقال إنّ النّبيّ ﷺ قد استعار من صفوان بن أُمَيّة مائة درع بما يكفيها من السّلاح[٣].

ثمّ خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكّة مع عشرة آلاف من أصحابه الّذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، فكانوا اثنى عشر ألفاً. واستعمل رسول الله ﷺ عَتّاب بن أَسِيد بن أبي العيص بن أُمَيَّة بن عبد شمس على مكّة، أميراً على من تخلّف عنه من النّاس. ثمّ مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن[٤].

عن جابر بن عبدالله قال: لمّا استقْبلْنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف[٥] حَطوط[٦] إنّما ننحدر فيه انحداراً. قال: وفي عَماية الصُّبح[٧]،وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فَكَمَنُوا لنا في شِعابِهِ وأحنائه[٨] ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيّئوا وأعدّوا. فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلاّ

---

(١) السيّرة النّبويّة ٢/٣٧٢.

(٢) انظر – مثلاً– السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٢و٣٧٣.

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٣.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٣.

(٥) أجوف : متّسع.

(٦) حطوط:منحدر.

(٧) عماية الصّبح : ظلامه قبل أن يتبيّن.

(٨) وأحنائه : وفي جوانبه.

الكتائبُ قد شدّوا علينا شدّة رجلٍ واحد. وانشمر[1] النّاس راجعين، لا يَلْوي أحدٌ على أحد[2].

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيّها النّاس؟ هَلُمُّوا إليّ أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبدالله.قال[3] فلا شيء[4] حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق النّاس.إلاّ أنّه قد بَقِي مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته[5].

وكان انهزام المسلمين يوم حنين في أوّل المعركة موضع تشفّ من الّذين لم يستقرّ الإسلام بَعْدُ في قلوبهم. فهذا يقول:لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[6] وهذا يقول: ألا بَطَلَ السِّحْرُ اليوم. وهكذا[7].

قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض أهل مكّة أنّ رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكّة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن نُغْلب اليوم من قلّة[8] وإذا كان مثل هذا القول قد جرى على لسان المصطفى ﷺ فلعلّ المعنى أنّه لو حدثت بإذن الله تعالى هزيمةٌ لنا فليس من أجل قلّة عَدَدِنا وعُدّتنا . والله تعالى أعلم .

قال ابن إسحاق : وزعم بعض النّاس أنّ رجلاً من بني بكر قالها[9].

---

(١) انشمر النّاس : انفضّوا وانهزموا.

(٢) السّيرة النّبويّة /٢/٣٧٥.

(٣) أي قال جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما.

(٤) فلا شيء : أي فلا شيء من استجابة.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٥.

(٦) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٦.

(٧) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٦.

(٨) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٦.

(٩) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٦ وانظر تفسير الطّبري١٠/٧٠.

وعن العبّاس بن عبدالمطّلب قال: إنّي لمع رسول الله ﷺ آخذٌ بِحَكَمة[1] بغلته البيضاء قد شجرتها بها[2] قال:وكنت امرءاً جَسِيماً شديد الصّوت. قال: ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من النّاس: أين أيّها النّاس. فلم أر النّاس يَلْوُون على شيء، فقال: يا عبّاس ،اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرة[3] قال: فأجابوا:لبّيك لبيك! قال: فيذهب الرّجل لِيَثْنِيَ بعيره فلا يَقْدِر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفُها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه،ويقتحم عن بعيره[4] ويخلّي سبيله، فيؤمّ الصّوت حتّى ينتهي إلى رسول الله ﷺ.

حتى إذا اجتمع إليه منهم مئةٌ، استقبلوا النّاس فاقتتلوا. وكانت الدّعوى أوّل ما كانت يا لَلْأنصار. ثمّ خلصت أخيراً:يا لَلْخَزْرج. وكانوا صُبُراً عند الحرب. فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مُجْتَلَد القوم[5] وهم يجتلدون فقال: الآن حَمِيَ الوَطيس[6].

---

(١) الحكمة ، حكمة اللجام : حديدته الّتي تكون في فم الفرس ويتّصل بها العِذاران ، مثنّى عذار ، ما سال من اللِّجام على خدّ الفرس.

(٢) شجرتها بها: أي وضعتها في شَجْرها ، وهو جوف الفم بين سقف الحنك واللّسان.

(٣) السّمرة : الشّجرة الّتي تمّت تحتها بيعة الرّضوان في الحديبية.

(٤) يقتحم عن بعيره : يرمي بنفسه من على ظهر البعير.

(٥) مجتلد القوم: مكان جلادهم بالسّيوف، وهو حيث تكون المعركة.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٧ وهذا القول من جوامع كلمه ﷺ. والوطيس عبارة عن حفرةٍ واسعة القاع ضيّقة العنق لها ثُقب يخرج منه الدّخان وتَتَنَفَّس منه. ويصحّ ألاّ يتمّ نضج اللّحم في التّنّور إلاّ من الغد وفي اليوم التّالي (انظر لسان العرب:"وطس") وإنّما ينضَج اللّحم إذا بلغت الحرارة في التّنّور الذروة وحمي الوطيس فعلاً . وكأنّ مكان المعركة أوطاس جمع وطيس نحو يمين وأيمان انظر معجم البلدان :" الأوطاس " من الأسباب الّتي جعلته يختار الوطيس ، هذا إلى كون الوطيس بشأن الفرن أو الحرب بحاجة إلى وقت قد يطول كي يبلغا الذّروة.

وإليك بعض الأحاديث الشّريفة الصّحيحة والنّصوص في عزوة حنين وفي شجاعته ﷺ. روى مسلم في صحيحه[١] عن أنس بن مالك: ثمّ إنّا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوفٍ رأيت . قال: فَصُفّت الخيل. ثمّ صُفّتِ المقاتلة . ثمّ صفّت النّساء من وراء ذلك. ثم صفّت الغنم ثمّ صفّت النَّعَم.

روى البخاريّ في صحيحه[٢] ومسلمٌ في صحيحه[٣] عن البراء بن عازب مجموعةً من الأحاديث في غزوة حنين[٤] قال رجلٌ للبراء: يا أبا عُمارة، أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله.ما ولىّ رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شُبّانُ[٥] أصحابه وأَخِفّاؤهم[٦] حُسّراً[٧] ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقُوا قوماً رُماةً لا يكاد يسقط لهم سهم. جَمْعُ هوازن وبني نصر. فرشقوهم رشقاً[٨] ما يكادون يخطئون.فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء. وأبو سفيان بن الحارث بن المطّلب يقود به. فنزل فاستنصر[٩] وقال:

أنا النّبيّ لا كذبْ[١٠] أنا ابن عبدالمطَّلبْ

ثمّ صَفَّهم[١] وروى مسلمٌ في صحيحه[٢] عن العبّاس بن عبدالمطّلب قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين.فلمّا التقى المسلمون والكفّار ولّى

---

(١) ٧٣٦/٢ حديث رقم ١٠٥٩ في إحدى صوره.

(٢) فتح الباري ٢٧/٨و٢٨ الأحاديث ٤٣١٥،٤٣١٦،٤٣١٥.

(٣) ١٤٠٠/٣ الحديث رقم ١٧٧٦ بصوره المختلفة.

(٤) صحيح مسلم ١٣٩٨/٣ الحديث رقم ١٧٧٥ في صوره المختلفة.

(٥) شبّان جمع شابّ ، كواحد ووحدان.

(٦) أخفّاء جمع خفيف كطبيب وأطبّاء. هم المسارعون المستعجلون.

(٧) حسّراً جمع حاسر كساجد وسجّد، أي بغير دروع.

(٨) فرشقوهم رشقاً : فرموهم بالسّهام رمياً دفعةً واحدة.

(٩) أي طلب من الله تعالى النُّصْرَة ودعا بقوله : اللهم نزِّل نصرك.

(١٠) أي النّبيّ حَقّاً فلا أفرّ ولا أزول.

(١) صحيح مسلم ١٤٠٠/٣

المسلمون مدبرين.فطفق[٣] رسول الله ﷺ يَرْكُضْ بَغْلَتَه[٤] قِبَل الكفّار.قال عبّاس: وأنا آخِذٌ بِلِجام بغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادة أن لا تُسْرِع. وأبو سفيان[٥]آخِذٌ بِرِكاب[٦]رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: أيْ عبّاس،ناد أصحاب السَّمُرة [٧]فقال عباس: وكان رجلاً صَيِّتاً[٨]فقلت بأعلى صوتي أين أصحابُ السَّمُرة؟ قال:فوالله لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها[٩]فقالوا: يا لبّيك يا لبيّك.قال: فاقتتلوا والكفّار[١٠]والدّعوة في الأنصار[١١]يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار. قال: ثمّ قُصِرَتِ الدّعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها، إلى قتالهم. فقال رسول الله ﷺ : هذا حين حَمِيَ الوطيس. قال : ثمّ أخذ رسول الله ﷺ حَصَيات فرمى بهنّ وجوه الكفّار. ثمّ قال : انهزموا وربّ محمّد" وفي رواية[١]:" انهزموا وربّ الكعبة . انهزموا وربّ الكعبة. وزاد في الحديث : حتّى هزمهم الله.

قال: وكأنّي أنظر إلى النّبيّ ﷺ يركض خلفهم على بغلته".

---

(٢) صحيح مسلم ١٣٩٨/٣ حديث رقم ١٧٧٥.

(٣) طفق يفعل الشّيء : جعل أو استمرّ يفعله.

(٤) يركض بغلته: أي يضر بها برجله الشّريفة على كبدها لتسرع.

(٥) هو ابن عمّ رسول الله ﷺ . قيل اسمه هو كنيته. وقيل اسمه المغيرة.

(٦) الرِّكاب من السّرج ما توضع فيه الرّجل، وهما ركابان.

(٧) أصحاب السّمرة : الّذين بايعوا النّبيّ ﷺ يوم الحديبية تحت الشّجرة بيعة الرّضوان.

(٨) صيّتاً : أي قويّ الصّوت.

(٩) أي عودهم وإقبالهم إليه ﷺ كإقبال الأمّات حنّت على الأولاد.

(١٠) أي مع الكفّار.

(١١) يعني الاستغاثة والمناداة إليهم.

(١) صحيح مسلم ١٣٩٩/٣ وانظر الكامل لابن الأثير ٢٦٣/٢و٢٦٤

عن جابر بن عبدالله: واجتلد النّاس. فوالله ما رجعت راجعة النّاس من هزيمتهم حتّى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله ﷺ [٢].

قال ابن إسحاق: ولمّا انهزم المشركون أتوا الطّائف، ومعهم مالك بن عوف. وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجّه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجّه نحو نخلة إلاّ بنو غِيَرَةَ من ثقيف. وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من النّاس، ولم تتبع من سَلَك الثّنايا[٣].

قال ابن هشام: وأنزل الله عزّ وجلّ في يوم حنين من سورة التّوبة الكريمة الآيتين الخامسة والعشرين والسّادسة والعشرين[٤] ويلحق بهما الآية الكريمة السّابعة والعشرون[٥] وهذه هي الآيات الكريمات الثّلاث وتفسيرها بإيجاز قال عزّ من قائل:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٣٧٧.

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٣٨٣.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٣٨٨.

(٥) انظر فتح الباري ٨/٢٧ فثمّة نصّ على نزول الآيات الكريمات الثّلاث.

والمعنى، والله تعالى أعلم، لقد نصركم الله تعالى أيّها المؤمنون في مواطن كثيرة، ومعارك عديدة. واذكر يوم حنين[١] إذ أعجبتكم كثرتكم فكنتم اثني عشر ألف مقاتل مقابل أربعة آلافٍ من الكفّار[٢] وحنين وادٍ إلى جنب ذي المجاز[٣] وعلى هوازن مالك بن عوف أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثّقفي[٤] روى أنّ النّبيّ ﷺ قال ذلك اليوم: لن نُغْلب من قلّة. وقيل: قال ذلك رجلٌ من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ وهو قول الله: ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ [٥] وضاقت عليكم الأرض في رحبها وبرحبها[٦] ورغم سعتها. ثمّ ولّيتم عن عدوّكم منهزمين[٧] وثبت رسول الله ﷺ وهو راكبٌ يومئذٍ بغلته الشّهباء يسوقها إلى نحر العدوّ.والعبّاس عمّه آخذٌ بِرِكابِها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب آخذٌ بركابها الأيسر، يثقّلانها لئلاّ تسرع السَّير، وهو ينوّه باسمه عليه الصّلاة والسّلام ويدعو المسلمين إلى الرَّجْعَة، أين يا عِبادَ الله إنّي أنا رسول الله ويقول في تلك الحال

أنا النّبيّ لا كَذِبْ ... أنا ابن عبد المطّلب[٨].

وثبت معه من أصحابه قريبٌ من مائة. ومنهم من قال: ثمانون ، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والعبّاس، وعليّ ، والفضل بن عبّاس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أمّ أيمن، وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم[١] ثمّ أنزل الله تعالى السّكينة، الأَمَنة والطمأنينة[٢] والثّبات[٣] على رسوله محمّد ﷺ

---

(١) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٦٨/٥.

(٢) الجلالين وتفسير الطّبري ٧٠/١٠

(٣) تفسير الطّبري ٧٠/١٠

(٤) تفسير الطّبري ٧٠/١٠

(٥) تفسير الطّبري ٧٠/١٠

(٦) تفسير الطّبري ٧٠/١٠ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٦٨/٥.

(٧) تفسير الطّبري ٧٠/١٠

(٨) تفسير ابن كثير ٦٨/٤

(١) تفسير ابن كثير ٦٨/٤.

(٢) تفسير الطّبري ٧٣/١٠.

وعلى المؤمنين. وأنزل جنوداً لم تروها أيّها المؤمنون هي الملائكة[٤] وعذّب الّذين كفروا في ميدان المعركة بالملائكة وبالمسلمين وذلك العذاب الأليم جزاء الكافرين.

ثمّ يتوب الله سبحانه وتعالى على من يشاء من الّذين أرشدهم عزّ وجلّ إلى باب التّوبة، وقبلها منهم، فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة. والله سبحانه وتعالى غفورٌ ذنب من استغفره ، رحيمٌ حينما لا يعذّب من أرشده إلى التّوبة ، وهداه وقبل توبته.

غزوة الطائف :

ولمّا قدم فَلّ[٥] ثقيف الطّائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصّنائع للقتال[٦].

ثمّ سار رسول الله ﷺ إلى الطّائف حين فرغ من حنين[٧]فسلك رسول الله ﷺ على نخلة اليمانية،ثمّ على قرن[٨]ثمّ على المُلَيْح،ثمّ على بحرة الرُّغاء من لِيّة، فابتنى بها مسجداً فصلّى فيه[١] وأمر رسول الله ﷺ وهو بِلِيَّة بِحِصْن مالك ابن عوفٍ فَهُدِم[٢].

ثمّ مضى رسول الله ﷺ حتّى نزل قريباً من الطّائف فضرب به عسكره. فَقُتِلَ به ناس من أصحابه بالنَّبل. وذلك أنَّ العسكر اقترب من حائط الطّائف

---

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٧٠.

(٤) تفسير الطّبري ١٠/٧٤.

(٥) الفَلّ : الجماعة المنهزمون من الجيش.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٤٠٥.

(٧) السّيرة النّبويّة ٢/٤٠٦.

(٨) يسمّى حاليّاً بالسّيل الكبير . وهو وادٍ بينه وبين مكّة مسيرة ليلتين، إحدى اللّيلتين من نخلة، يجتمع بها حاجّ اليمن وأهل نجد. ياقوت.

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٤٠٩.

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٤٠٩.

فكانت النّبل تنالهم. ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم. فلمّا أصيب أولئك النّفر من أصحابه بالنّبل وضع عسكره عند مسجده الّذي بالطّائف اليوم ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة.

قال ابن هشام: ويقال سبع عشرة ليلة[٣] فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً وترامَوْا بالنَّبْل[٤] قال ابن هشام: ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق. حدّثني من أثق به أنّ رسول الله ﷺ أوّل من رَمَى في الإسلام بالمنجنيق، رمى أهل الطّائف[٥].

ودخل نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبّابة، ثمّ زحفوا بها إلى جدار الطّائف لِيَخرِقوه، فأرسلت عليهم ثقيفٌ سِكَكَ الحديد مُحْماةً بالنّار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيفٌ بالنّبل، فقتلوا منهم رجالاً. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع النّاس فيها يقطعون[٦].

ويقال إنّ رسول الله ﷺ قد استجاب رجاء ثقيف أن يترك عليه الصّلاة والسّلام أعنابهم لله تعالى وللرّحم[٧] .

ونزل على رسول الله ﷺ في إقامته ممّن كان محاصراً بالطّائف عَبِيد، فأسلموا، فأعتقهم رسول الله ﷺ [١].

ولمّا رأى رسول الله ﷺ أنّ تمنّع ثقيف شديد،وأنّ الفتح لم يؤذن فيه أذّن بالرّحيل[٢] ويقال إنّ الّذي أذن له النّبيّ ﷺ بأن يؤذّن بالرّحيل عمر رضي الله عنه [٣]

---

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٤٠٩.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٠.

(٥) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٠.

(٦) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٠.

(٧) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١١.

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٤١١.

(٢) انظر نور اليقين ٢٥٩.

ويقال إنّ النّبيّ ﷺ استشار نوفل بن معاوية الدّيليّ في المقام عليهم فقال: يا رسول الله: ثعلبٌ في جُحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك، فأذّن بالرّحيل[٤] وطلب بعض الصّحابة من النّبيّ ﷺ أن يدعو على ثقيفٍ فقال: اللّهُمَّ اهد ثَقِيفاً وائت بهم مسلمين[٥].

وكان عدد من استشهد بالطّائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً، سبعةً من قريش، وأربعةً من الأنصار، ورجلاً من بني ليث[٦].

أمر أموال هوازن وسباياها:

كان النّبيّ ﷺ قد أمر بالسّبايا والأموال إلى الجِعْرانة فحُبِست بها[٧] وقد تعمّد المصطفى ﷺ أن لا يتعجّل التّصرّف في السّبي والأموال على أمل أن تأتي هوازن مسلمةً لله تعالى ربّ العالمين، ولكنّ هوازن تأخّرت عن النّبيّ ﷺ فلم يأت أحدٌ منها طَوال مدّة حصار الطّائف ومضيّ أيّامٍ بعد وصول النّبيّ ﷺ إلى الجِعْرانة. وحينما لم يأت إلى النّبيّ ﷺ أحدٌ من هوازن تصرّف عليه الصّلاة السّلام في السَّبي فأحصاه وخمّسه ووزّعه[١]وكان مع رسول الله ﷺ من هوازن سبيٌ قوامه ستّة آلافٍ من الذّراري والنّساء، ومن الإبل والشّاء ما لا يُدْرى ما عدّته[٢].

علمت هوازن بحال السَّبي فأتى وفدها مسرعاً إلى رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقالوا: يا رسول الله: إنّا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا

---

(٣) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١١.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير ٢/٢٦٧ ونور اليقين ٢٥٩.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير ٢/٢٦٧ ونور اليقين ٢٥٩ والسيرة النّبويّة ٢/٤١٤.

(٦) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١٣.

(٧) السّيرة النّبويّة ٢/٣٨٩.

(١) انظر نور اليقين ٢٥٩.

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٤.

يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك[٣] وقام رئيس الوفد من هوازن ثمّ أحد بني سعد بن بكر يقال له زهير، يُكَنّى أبا صُرَد، فقال: يا رسول الله. إنّما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك[٤] الّلاتي كنّ يكفلنك. ولو أنّا مَلَحْنا[٥] للحارث بن أبي شَمِر أو للنُّعمان بن المنذر، ثمّ نزل مِنّا بمثل الّذي نزلت به، رجونا عَطْفَهُ وعائدته[٦] علينا وأنت خير المكفولين[٧] فقال رسول الله ﷺ: إنّ أحبّ الحديث إليّ أصدقه[٨]أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا:يا رسول الله، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا. بل تردّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبّ إلينا، فقال لهم: أمّا ما كان لي ولبني عبدالمطّلب فهو لكم. وإذا ما أنا صلّيت الظّهر بالنّاس فقوموا فقولوا: إنّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.فلمّا صلّى رسول الله ﷺ بالنّاس الظّهر قاموا فتكلّموا بالّذي أمرهم به فقال رسول اللهﷺ : وأمّا ما كان لي ولبني عبدالمطّلب فهو لكم. فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺفقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حِصْن: أمّا أنا وبنو فزارة فلا. وقال عبّاس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سُلَيْم فلا. فقالت بنو سليم: بَلَى.ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ[١].

---

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٤.

(٤) حواضنك : يعني الّلاتي أرضعن النّبيّ ﷺ . وقد كانت حاضنته عليه الصّلاة والسّلام من بني سعد بن بكر من هوازن.

(٥) ملحنا : أرضعنا.

(٦) عائدته : فضله.

(٧) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١٤ ونور اليقين٢٦٢.

(٨) نور اليقين ٢٦٢ وانظر فتح الباري ٨/٣٢ حديث رقم ٤٣١٨و٤٣١٩.

(١) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٥.

وروي أنّ عبّاس بن مرداس قال لبني سُلَيْم:وهّنتموني[٢]أي أضعفتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أمّا من تمسّك منكم بحقّه من هذا السَّبي فله بكلّ إنسان ستُّ فرائضَ منْ أوّل سبيٍ أصيبه.فردّوا إلى النّاس أبناءهم ونساءهم[٣].

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطّائف مع ثقيف. فقال: رسول الله ﷺ: أخبروا مالكاً أنّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئةً من الإبل. فأُتِيَ مالكٌ بذلك فخرج إليه من الطّائف. وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أنّ رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فَهُيِّئَتْ له، وأمر بفرسٍ له فأُتِي به إلى الطّائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه، فركضه حتّى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبَس، فركبها، فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجِعْرانة أو بمكّة. فردّ له أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه[٤].

واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج سرحٌ إلاّ أغار عليه ضيَّق عليهم[٥].

قسم الفيء :

أعطى رسول الله ﷺ المؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف النّاس، يتألّفهم ويتألّف بهم قومهم، فأعطى كلّ واحدٍ منهم مئة بعير[١] وهؤلاء أصحاب المئين. أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كَلَدَة، ونُصَيْر بن الحارث بن كَلَدَة، والحارث ابن هشام، وسهيل

---

(٢) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٥.

(٣) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٥.

(٤) السّيرة النّبويّة ٢/٤١٦.

(٥) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١٧.

(١) انظر السّيرة النّبويّة ٢/٤١٨.

بن عمرو، وحويطب بن عبد العزّى بن أبي قيس، والعلاء ابن جارية الثّقفيّ ، وعيينة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس التّميميّ، ومالك بن عوف النّصريّ،وصفوان بن أميّة[٢] وكما زاد النّبيّ ﷺ حكيم بن حزام، بناءً على طلبه من المال مرّةً ومرّةً ومرة[٣] رفع نصيب العبّاس من مرداس من خمسين إلى مائة ناقة[٤] وكلاهما كان موضع توجيهٍ من النّبيّ ﷺ وبخاصّةٍ حكيم بن حزام.

وأعطى النّبيّ ﷺ من الفيء لآخرين دون ذلك للغاية ذاتها[٥] .

ثمّ أمر عليه الصّلاة والسّلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم وقسمه على الغزاة[٦].

وإنّما خصّ النّبيّ ﷺ أشراف قريش بتلك العطايا من الغنائم كي يتألّف قلوبهم . وبمقدار زيادة الإيمان يقلّ العطاء إلى أن ينعدم. فلم يعط النّبيّ ﷺ كلاً من المهاجرين والأنصار شيئاً . وروي أنّ قائلاً قال لرسول الله ﷺ مِنْ أصحابه: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مئةً، وتركت جعيل بن سراقة الضَّمْريّ[١] فقال رسول الله ﷺ: أما والّذي نَفْسُ محمّد بيده لَجُعَيْل بن سراقة خيرٌ من طِلاع[٢] الأرض، كلّهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكنّي تألّفتهما لِيُسْلِما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه[٣].

---

(٢) السّيرة النّبويّة ٤١٨/٢.

(٣) انظر فتح الباري ٣٣٧/٣ والأحاديث ١٤٢٧و١٤٧٢و٢٧٥٠و٣١٤٣و٦٤٤١.

(٤) انظر السّيرة النّبويّة ٤١٩/٢.

(٥) انظر السّيرة النّبويّة ٤١٨/٢.

(٦) انظر نور اليقين ٢٦٠.

(١) انظر – مثلاً – أسد الغابة ٢٩٠/١و٢٨٣/١.

(٢) طلاع الأرض : ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل.

(٣) انظر السّيرة النّبويّة ٤٢٠/٢

وعن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: لمّا أَعْطَى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيٌ، وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم، حتّى كثرت منهم القالة[٤] حتّى قال قائلهم لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه. فدخل عليه سعد بن عُبادة فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الّذي أصبت، قسَّمت في قومك،وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب.ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي.قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة[٥] قال: فخرج سعد،فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال فجاء رجالٌ من المهاجرين فتركهم فدخلوا. وجاء آخرون فردّهم. فلمّا اجتمعوا له أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار . فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم. وجِدة[٦] وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله. وعالةً[١] فأغناكم الله. وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ[٢] وأفضل. ثمّ قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لِلهِ ورسوله المنّ والفضل. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولَصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك. ومخذولاً فنصرناك.وطريداً فآويناك. وعائلاً[٣] فآسيناك[٤] أوجدتم يا

---

(٤) القالة : الكلام الرّديء.

(٥) المراد بالحظيرة الفناء أو القبّة.

(٦) الجدة بمعنى الموجدة والعتاب.

(١) عالة جمع عائل وهو الفقير.

(٢) أمنّ من المنّة وهي النّعمة.

(٣) عائلاً : فقيراً.

(٤) آسيناك : أعطيناك حتّى جعلناك كأحدنا.

معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعَة[٥] من الدّنيا تألّفت بها قوماً لِيُسْلِمُوا ووكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار ان يذهب النّاس بالشّاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذّي نفس محمّدٍ بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك النّاس شِعْبا[٦] وسَلَكَتِ الأنصار شِعْباً لسلكت شعب الأنصار. اللهمّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتّى أَخْضَلُوا لحاهم[٧] وقالوا: رضينا برسول الله قَسْما وحظاً. ثمّ انصرف رسول الله ﷺ وتفرّقوا[٨].

وجاء في صحيح مسلم[٩] في إحدى الرّوايات :" الأنصار شِعار، والنّاس دِثار"[١٠].

وهكذا أزال رسول الله ﷺ في دقائق معدودات ما شاب بعض نفوس الأنصار الّذين غابت عنهم حكمته ﷺ في إيثار المؤلّفة قلوبهم بالعطاء كما أزال ﷺ من قبل ما كان في نفس العبّاس بن مرداس بزيادة العطاء، وما كان في نفس حكيم بن حزام فتحوّل بسبب موعظة النّبيّ ﷺ من راغبٍ في مجرّد العطاء إلى زاهدٍ في عطائه الحقّ الخالِصِ لِه حتّى لقي الله تعالى.

وهكذا يصف ﷺ لكلّ نفسٍ الدّواء النّاجع لها ولأمثالها.

لقد أوحت هذه المعاني بالقصيدة التّالية:

---

(٥) الُّلعاعة : بقلة خضراء ناعمة. شبّه بها زهرة الدّنيا ونعيمها.

(٦) الشّعب: الطريق بين جبلين.

(٧) اخضلوا لحاهم : بلُّوها بالدّموع.

(٨) السّيرة النّبويّة ٤٢٢/٢ وانظر فتح الباري ٤٧/٨ حديث رقم ٤٣٣٠ وصحيح مسلم ٧٣٣/٢-٧٣٩

(٩) ٧٣٩/٢ حديث رقم ١٠٦١

(١٠) الشّعار: الثوب الذي يلي الجسد ويلامس شعره . والدّثار فوقه. ومعنى الحديث : الأنصار هم البطانة والخاصّة والأصفياء وألصق النّاس بي من سائر النّاس.